مصر فى خاتمة القرن السابع عشر

كما رآها العلامة عبد الغنى النابلسى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ليس فى تاريخ مصر الاسلامية أغمض من العصر التركى بل نستطيع أن نقول إن ليل الاسلام وليل الأمم العربية والاسلامية كلها يبتدىء بابتداء العصر التركى. وبينما نرى تاريخ مصر الاسلامية زاهراً وضاء قبل الفتح التركى إذا نستار كثيف من الغموض والظلمات ينسدل من بعده على هذه العصور المجيدة، وإذا بالانحلال والفساد والفوضى تغمر ذلك المجتمع الزاهر الذى لبث قروناً يسطع خلال العصور الوسطى؛ وفى هذه المرحلة الغامضة المؤسية من تاريخ مصر لا نظفر بكثير من المواد أو المصادر التى تلقى كبير ضوء على المجتمع المصرى، ولا يدون المؤرخ غير تعاقب الولاة الترك ولا يكاد يروى لنا شيئاً من الأحداث العظيمة أو الحوادث الشائقة، اللهم إلا فى أواخر هذا العصر، حينما تستيقظ الحركة القومية المصرية من سباتها الطويل، وينزع الزعماء المماليك إلى تحطيم نير الأجنبى، ثم تمهد الحملة الفرنسية لانهيار الحكم التركى، وبزوغ العصر الجديد.

بيد أننا نستطيع أن نتتبع أحوال المجتمع المصرى فى تلك المرحلة على يد جمهور من الأدباء والرحل الذين وفدوا على مصر فى تلك العصور سواء من الشرق أو الغرب. وقد انتهت الينا طائفة من مشاهداتهم التى دونوها فى رحلاتهم، وهى وثائق لها قيمتها فى الكشف عن بعض نواحى المجتمع المصرى فى هذا العصر؛ ثم هنالك أنفس آثار هذه المرحلة اطلاقا، وهى مذكرات الجبرتى التى تلقى أعظم ضياء على تاريخ مصر والمجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر.

وقد رأينا أن نستعرض مشاهدات أولئك الرحل كلما سنحت الفرص، وأن نستخرج من آثارهم مايفيد فى تعرف أحوال المجتمع المصرى فى تلك المرحلة. وسنبدأ اليوم باستعراض رحلة علامة وأديب دمشق وفد على مصر فى خاتمة القرن السابع عشر، وترك لنا عن رحلته بمصر أثراً يدون به بعض الملاحظات المفيدة عن المجتمع المصرى فى ذلك العصر.

ذلك الرحالة هو الفقيه والعلامة الصوفى الشهير عبد الغنى النابلسى، وهو شخصية غريبة تستحق الدرس؛ بيد أنا نكتفى هنا بترجمته بايجاز، فهو عبد الغنى بن اسماعيل بن عبد الغنى ابن اسماعيل بن احمد النابلسى الحنفى الدمشقى النقشبندى القادرى، وينعت بشيخ الاسلام وأستاذ الأساتذة؛ ولد بدمشق فى سنة ١٠٥٠ هـ (١٦٤٠م) ودرس القرآن والحديث والفقه والنحو، وقرأ على أعظم شيوخ العصر فى دمشق، وانتظم منذ فتوته فى الطريقة القادرية ثم الطريقة النقشبندية، وانكب على قراءة الأدب الصوفى ولا سيما آثار محيى الدين ابن العربى؛ وتولى التدريس حيناً بالجامع الأموى؛ وحمله تيار التصوف فى شبابه إلى نوع من الشذوذ والهيام فلزم داره مدى أعوام، وأطلق شعره حتى تدلى على كتفيه، وأطلق أظافره، وصارت تعتريه نوبات من الذهول حتى ظن أنه جن؛ ورماه خصومه بالزندقة واشتدت الحملة عليه؛ ولكنه تغلب على خصومه، وضاعفت المحنة هيبته وشهرته؛ وكان مغرما بالسياحة، فسافر إلى استانبول أو دار الخلافة كما كانت تسمى يومئذ، سنة ١٠٧٥هـ (١٦٦٤م) ومكث بها حينا؛ ثم طاف بالشام وثغوره، ورحل بعد ذلك إلى مصر والحجاز؛ وانقطع للتدريس منذ سنة ١١١٥ هـ، وهو فى الخامسة والستين من عمره وأقام فى أواخر حياته بالصالحية على مقربة من دمشق، وعلا قدره وطار صيته، وتوفى سنة ١١٤٣ (١٧٣٠ م) وقد أربى على التسعين من عمره، ودفن بالصالحية، وقبره يعتبر مزارا يتبرك به إلى اليوم.

وكتب النابلسى عدة كبيرة من الكتب والرسائل فى التفسير والحديث والفقه والتصوف؛ وقد اشتهر بالأخص ببديعيته فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم وهى المسماة «نسمات الأسحار فى مدح النبى المختار»؛ وله شرح لديوان ابن الفارض؛ ومنظومة فى تاريخ ملوك بنى عثمان؛ ودون رحلته عن الشام ومصر والحجاز فى سفر كبير أسماه «الحقيقة والمجاز»؛ وبلغت مؤلفاته ورسائله أكثر من مائة، اشتهر الكثير منها

فى أنحاء العالم الإسلامى (١)

* * *

كانت أمنية الحج باعث الرحلة الكبيرة التى قام بها عبد الغنى النابلسى سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٣ م) فى الشام ومصر والحجاز ؛ وهو يخصص لهذه الرحلة كما قدمنا سفرا خاصا عنوانه «الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز»، لدينا منه بدار الكتب نسخة خطية جميلة(٢) ؛ وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام ، يخصص القسم الأول منه لرحلة الشام وفلسطين ، والثانى للرحلة المصرية ، والثالث لرحلة الحجاز ؛ ويدون النابلسى رحلته بطريقة اليوميات ، فيذكر تنقلاته وزياراته ومشاهداته ، ويستطرد فى أحيان كثيرة إلى ذكر النبذ التاريخية والأدبية ؛ وقد بدأ رحلته من مدينة دمشق فى غرة المحرم سنة ١١٠٥ ، (٢ سبتمبر سنة ١٦٩٣) وطاف أولا بمدن الشام وثغوره ، ووصل إلى الحدود المصرية حسبما يذكر فى يومياته فى اليوم الثالث بعد المائة من بدء الرحلة وذلك فى ١٤ ربيع الثانى سنة ١١٠٥ ، ودخل مدينة القاهرة من باب الشعرية فى ٢٤ ربيع الثانى (أواخر ديسمبر سنة ١٦٩٣) وهو يحييها بإعجاب وحماسة كما حياها من قبل جميع الأعلام الوافدين عليها من المشرق والمغرب ؛ ونزل ضيفا على صديقه الشيخ شاهين بن فتح الله حيث أفرد له دارا خاصة ملاصقة لداره ورتب له بها كل ما يلزم لراحته ورفاهته ؛ وكان أول من استقبله من أعيان مصر عميد السادة البكرية السيد زين العابدين البكرى ، فزاره بداره الواقعة على بركة الأزبكية ، ويشير النابلسى إلى فخامة هذه الدار وروعة مجلسها المنيف المطل على البركة ، ويصف البركة الشهيرة ، ذات الروح والريحان التى فيها نفحة من نفحات الجنان ، ؛ ثم يصف الحمام المجاور للدار البكرية ، وبه جناح خاص لا يدخله سوى السيد . وقد دعاه إليه وتمتع بالاستحمام فيه . وكان والى مصر التركى يومئذ على باشا خازن دار واليها من قبل السلطان احمد خان (١٦٩٠ — ٩٤) ، فاستصحبه السيد البكرى لزيارته بمنزله بالقصر العينى المطل على النيل ؛ وكانت لمضيفه السيد شاهين علاقة صداقة بالوزير (الوالى) فكان يدعوه للمنادمة ، ويذهب النابلسى معه إلى مجلس الباشا فيقضيان فى زيارته أوقاتا طويلة

وزار النابلسى المحكمة وقاضيها التركى عارف افندى وأعجب بضخامتها وبساتينها اليانعة ، وزار مراد بك المصرى وهو من أعيان الصناجق المصرية بقصره الفخم فى «سبيل علام» على قيد ساعتين من القاهرة ، وينعته «بفخر الاكارم والاماجد» ، وقد أعجب النابلسى بفخامة مجالس أعيان المصريين وبذخها وحسن رواتها ، وكانت تجهز بالأنوار الساطعة من قناديل وشموع ، وتطلق فيها مباخر العود والعنبر ، وينتظم فيها أهل الفن ويوقعون نغماتهم الساحرة على الجنك والعود والرباب وتنشد فيها القصائد الغراء ، وبالجملة ، فقد كانت مجالس السمر والطرب والسمر الرفيع .

ويصف النابلسى جزيرة الروضة وجمالها ، والمقياس وعجائبه وجامع عمرو وفخامته ؛ ثم قلعة الجبل ، وقد كانت مركز الوزير التركى (الوالى) وبها ديوان العساكر ، ويصف لنا المؤرخ بئر «الحلزون» الشهيرة التى أنشأها بها السلطان الغورى لاستخراج الماء من أعماق الأرض وقد شهد البقر تدور فيها على عمق سحيق ، وكان بالقلعة يومئذ عدة من السرايات والجوامع والمساجد والحمامات كأنها مدينة مستقلة ، وأبراجها العظيمة مما يلفت الأنظار ، وكان بها مصنع خاص لعمل الكسوة النبوية ، وعمل السجاد للحرم الشريف .

ثم يحدثنا الرحالة عن الجامع الأزهر وعن شيخه وهو يومئذ الشيخ منصور المنوفى الشافعى الضرير ، وكان يكثر من زيارته ويجتمع بأساتذته وطلابه ويستمع لبعض ما يلقى فيه من الدروس ، ويقول لنا النابلسى إن طلبة الأزهر رجوه فى إلقاء بعض دروس فى الحديث فاعتذر إليهم ، وكانوا يجتمعون حوله ، ويلتمسون بركته ، وهو يبكى تأثرا .

وكان الرحالة كثيرا ما يمر فى غدواته وروحاته بباب زويلة ، وقد كان يومئذ مخرج القاهرة القديمة من الجنوب ، ولم يفته أن يصف محلة زويلة ، وما كان يجتمع بها يومئذ من أرباب الملاعب والسميا ، وهم طائفة المهرجين والحواة ، الذين لم ينقرض نسلهم إلى يومنا

على أن أهم ما عنى به الرحالة هو زيارته للقرافة ومزاراتها ، وقد كانت الفسطاط ما تزال مجمع المقابر والمزارات الفخمة ،

(١) راجع فى ترجمة عبد الغنى النابلسى وذكر مؤلفاته سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر (ج ٣ ص ٢٠ وما بعدها) وكذلك الجبرتى ج ١ ص ١٠٩

(٢) تحفظ هذه النسخة برقم ٢٤٤ جغرافيا

تتوسطها مقبرة الشافعي الخالدة ؛ وكان النابلسي كما رأينا من أقطاب الصوفية الذين تستهويهم ذكريات القبور والمزارات المشهورة ، ومن ثم نراه يفيض في وصف زياراته للقرافة ومقابر الفسطاط التاريخية ولا سيما مقبرة الشافعي ، وينوه بعظمتها وسحرها ، ويترجم لمن يأتي ذكرهم من العلماء والأولياء ؛ ثم يصف زيارته لمزار وليه المصطفى ابن الفارض بجامع القرافة ، كما يصف لنا حلقات الذكر الصوفي الذي تنشد فيه القصائد والأناشيد المؤثرة ، ويقول لنا إنه شهد الأولياء أحياناً يأخذهم التأثر فيمزق بعضهم ثيابه أو يدوس الناس هائماً على وجهه لا يلوي على شيء

ولبث النابلسي بالقاهرة ثمانين يوماً حتى اقترب موعد السفر إلى الحجاز ؛ فقابل أمير الحاج المصري إبراهيم بك واستشاره في خير الوسائل للسفر الآمن ، وبذل أمير الحج له ما استطاع من النصح والمعونة ، وأعد النابلسي عدته للسفر وودع أصدقاءه في مظاهر مؤثرة ، وغادر القاهرة في السادس من رجب (سنة ١١٠٥) في ركب من المصريين والشاميين ، وغادرها من باب الشعرية كما دخلها ، وودع الوزير خارج القاهرة بقصره بالعادلية ، وإلى هنا تنتهي رحلته المصرية

٥٥٥

وإذا كان النابلسي لم يعن كثيراً بدراسة أحوال المجتمع المصري يومئذ ولم يقدم الينا عنه بيانات شافية ، فانه يقدم الينا بيانات وملاحظات لها قيمتها في دراسة المجتمع المصري في خاتمة القرن السابع عشر ؛ ولعل أنفس ما فيها أقواله عن معالم القاهرة ومعاهدها ، فهذه الأقوال في ذكر أبواب القاهرة وبركة الأزبكية وجزيرة الروضة والمزارات الكثيرة وغيرها ما يفيد في تعرف خطط القاهرة في هذا العصر ، وهي تعتبر حلقة في مجموعة الآثار التي لدينا عن الخطط ، ثم أن أحاديثه عن أعيان القاهرة وعن مجالسهم من الصور التي لها قيمتها في تعرف مجتمع هذا العصر . ولنذكر أن العصر الذي يحدثنا عنه النابلسي يسبق بداية العصر الذي يحدثنا عنه الجبرتي بنحو خمسين عاما فقط ، ومن ثم فني وسعنا أن نصل بين المواد المشتركة في هذين الأثرين في دراسة المجتمع المصري في القرن الثامن عشر

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

التشابه والاختلاف

في الأدبين العربي والانجليزي

خاتمة

للأستاذ فخري أبو السعود

يروع الناظر في الأدبين العربي والانجليزي شدة ما بينهما من تباعد ، وكثرة ما هنالك من وجوه الاختلاف ، وقلة ما فيهما من وجوه التشابه والاتفاق ، ولا غرو فان الظروف الجغرافية والتاريخية التي أحاطت بنشأة كل منهما ونموه وازدهاره ، كانت متباينة أي تباين ، والعوامل الاجتماعية والسياسية التي تترك آثارها في الأدب كانت متضادة أي تضاد ، فجاء الأدبان اللذان هما وليدا تلك الظروف والعوامل مختلفين أعظم اختلاف ، في الموضوعات والأساليب والأشكال والأغراض ، ولم يتفقا إلا في كل عام من الوجوه التي يستوي فيها جميع الآداب لشيوعها بين جميع شعوب الانسانية

فالأمة العربية أمة سامية ضربت في فيافي الجزيرة أحقاباً ، وترعرع أدبها تحت سماء البادية ، ثم خرجت من جزيرتها فورثت حضارات الأمم الشرقية ، وأخضعت لسلطانها أغنى بلاد الشرق وسيرت تحت لوائها شعوباً أرقى منها مدنية وأعرق في العلم والصناعة ودانت لحكومة ملكية مطلقة ، وكان الدين أساس دولتها وشارة مجتمعها ؛ والأمة الانجليزية أمة آرية خرجت من جزيرتها المنعزلة فجولت في البحار ، وشاركت في تراث الاغريق والرومان ، واعتنقت المسيحية ، وساهمت في الحضارة الأوربية ، وتمسكت بنظام الحكم الديمقراطي ؛ فهما أمتان مختلفتان في الجبلة ونوع المجتمع ومتجه التفكير ، فاختلف أدباهما تبعا لذلك ، ولم يتفقا كما تقدم إلا في وجوه عامة ومناح عارضة :

فعصر الجاهلية في تاريخ الأدب العربي شبيه بعصر ما قبل الزايث في التاريخ والأدب الانجليزيين : ففي ذينك العصرين كان كل من الشعبين يعيش داخل جزيرته في عزلة كبيرة عن العالم . على حال شبيه بعصر الأبطال في بلاد اليونان الذي أنتج ملاحم